

## خطبة طارق بن زياد بين الشك واليقين

د. سعد بو فلاقة \*

### ملخص

**يتناول** موضوع هذا البحث آراء الدارسين في "خطبة طارق بن زياد" فقد اختلفوا في نسبة الخطبة إليه، فوقف بعض الباحثين وقفة شك في نسبتها إليه، وأثبتها له باحثون آخرون، وسنتناول آراء هؤلاء وهؤلاء في هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، ثم نبين بطلان هذا الشك.

### توطئة:

منذ وطئت أقدام المسلمين أرض الأندلس، وهم يعيشون في نزاع دائم مع سكان البلاد الأصليين، وقد ظلت السيوف مشرعة بين الفريقين طوال مدة حكم الولاة<sup>(1)</sup>، ويطلق اسم عصر الولاة على الفترة التي أعقبت الفتح الإسلامي للأندلس ودامت ستة وأربعين عاماً (92 - 138 هـ). وتبدأ هذه الفترة بطارق بن زياد، ثم بموسى بن نصير، ثم بابنه عبد العزيز، وتنتهي ببيوسف الفهري سنة 138 هـ. وقد ولي الأندلس في هذه الفترة اثنان وعشرون والياً<sup>(2)</sup>، فمنهم من كان يُعينهم خلفاء بني أمية في دمشق، ومنهم من كان يعينهم والي إفريقية في القيروان، وكانوا يختلفون قوة وضعفاً، واستقامة وانحرافاً. وفي هذه الفترة توغل المسلمون الفاتحون في بلاد إسبانية وفتحوا بلداً جديدة كبرشلونة (BERCELONE)، وقشتالة (GASTILLE)، ثم فتحوا جزءاً من فرنسا بقيادة عبد الرحمن الغافقي، فوصلوا إلى مدينة ليون (LYON) وما زالوا يتقدمون في قلب فرنسا

\* كلية الآداب، جامعة عنابة (الجزائر).

(1) د. محمد خليفة وزكي سويلم: الأدب العربي وتاريخه، ص: 107.

(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص: 19 وما بعدها.

حتى بلغوا تور (TOURS) ولكن شارل مارتل اعترضهم بجموع الفرنجة في سهول بواتيه<sup>(1)</sup>، وقتل في تلك المعركة، التي يسميها العرب بلاط الشهداء قائدهم عبد الرحمن الغافقي، وكثيرون معه، وكان في ذلك سنة 144 هـ (732م). ولم يقتصر عصر الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى في أوربة بل حدث شقاق عظيم في المسلمين أنفسهم<sup>(2)</sup>، فقد كانت هناك نزاعات وحروب داخلية على أشدها بين العرب والبربر تارة، وبين العرب أنفسهم تارة أخرى، ولاسيما بين القيسية واليمانية، ثم بين مؤيدي الأمويين والعباسيين. لهذا كله كان عصر الولاة عصراً مضطرباً، وكانت السمات السياسية فيه، هي: الحروب والصراع، وعدم الاستقرار، مما جعل القلق يدب في أوصال المجتمع، ويفكك قوته ويصدع تماسكه<sup>(3)</sup>.

وفي هذا العصر بدأت الخيوط الأولى لفجر الأدب الأندلسي، فقد عرف عصر الولاة شذرات من الشعر والنثر قالها أدباء من الطائرتين على الأندلس<sup>(4)</sup>، كانت بمثابة خيوط الفجر الأولى التي تؤذن بصبح مشرق. ويبدو أن أول نص أدبي عربي تردد في الأندلس هو هذه الخطبة وأبيات شعرية أخرى قالها طارق بن زياد في الفتح، وقد أوردها المقرئ في النفح<sup>(5)</sup>.

## أولاً: معطيات:

### 1 - الشخصية:

هو طارق بن زياد ولد سنة 50 هـ/640م، وتولى طنجة سنة 89 هـ/707م، ثم فتح الأندلس سنة 92 هـ/710م. أما وفاته فكانت على الأرجح سنة 102 هـ. وقد اختلف في نسبه، ولكن أرجح الأقوال أنه بربري فُح، ولكنه كان على صلة بالعروبة والإسلام منذ زمن ليس بالقصير، فقد ذكر له ابن عذاري أبوين في الإسلام، فاسمه الكامل: طارق بن زياد بن عبد الله، ويبدو أنه ليس هو الذي أسلم أولاً بل والده وجده الذي يكون قد انتقل إلى المشرق، وهناك نشأ طارق في بيئة عربية إسلامية، مع احتفاظه بلهجة أجداده البربرية، ثم جند بعد ذلك في جيش موسى بن نصير، وجاء معه إلى المغرب، وكان من أشد رجاله<sup>(6)</sup>.

### 2 - الظروف:

أما الظروف الذي قيلت فيه الخطبة فهو كما ذكر ابن خلكان والمقرئ، أن طارق بن زياد لما استقر بأرض الأندلس، وبلغ دنو لذريق منه قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم حث المسلمين

(1) وقعت معركة بلاط الشهداء في سهول بواتيه وعلى بعد نحو 250 كيلو متراً من باريس جنوباً.

(2) انظر: بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص: 16.

(3) انظر: أخبار مجموعة، ص: 19 وما بعدها. وابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس، ص: 19. وما بعدها. وابن عذاري: البيان

المغرب، ج2، ص: 4 وما بعدها.

(4) هؤلاء الأدباء هم: أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وجعونة بن الصمة الكلبي، وطارق بن زياد وغيرهم.

(5) انظر المقرئ: نفح الطيب، مج1، ص: 265.

(6) ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص: 4 وما بعدها. وابن القوطية: المصدر السابق، ص: 28 وما بعدها.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الظرف الذي قيلت فيه الخطبة هو فتح الأندلس، ولا يهم أكان ذلك قبل بدء المعركة الفاصلة أم أثناءها.

لقد عاشت الخطبة في المصادر المغربية والمشرقية التاريخية والأدبية، كتاريخ عبد الملك بن حبيب<sup>(3)</sup>، المتوفى سنة 238 هـ/ 852م والإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة<sup>(4)</sup>، المتوفى سنة 276 هـ/ 889م، وسراج الملوك للطرطوشي<sup>(5)</sup>، المتوفى سنة 520 هـ/ 1126م، وريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب لأبي محمد عبد الله المواقيني الإشبيلي<sup>(6)</sup>، عاش في عصر الموحدين، ووفيات الأعيان لابن خلكان<sup>(7)</sup>، المتوفى سنة 681 هـ/ 1282م، وتحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل<sup>(8)</sup>، وهو من أهل القرن الثامن الهجري، ونفح الطيب للمقري<sup>(9)</sup>، المتوفى سنة 1041 هـ/ 1631م.

وقد وردت الخطبة في هذه المصادر بنصوص متشابهة حيناً ومختلفة حيناً آخر، ولكنها نالت شهرتها بفضل ابن خلكان الذي نقل حرفيات الخطبة عن مصدر لم يذكره، ثم أخذها عنه المقرئ، فأورد لنا نصاً "منقحاً ومشذباً" عما كان يتناقله المؤرخون والكتاب في تأليفهم ومصنفااتهم خلال عصره من أخبار تتعلق بالإطار البنائي والأدبي للخطبة دون مناقشتها وتحليلها<sup>(10)</sup>.

وقد اتخذنا نص "نفع الطيب" أساساً للدراسة باعتباره من أكمل النصوص التي وصلت إلينا،

(1) انظر المقرئ: المرجع السابق، مج 1، ص: 240.

(2) انظر تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس (النسخة المخطوطة التي نشرها مصورة لويس مرسية في باريس، سنة 1932، ص: 70 - 71، نقلاً عن د. سوادى عبد محمد: طارق بن زياد، ص: 84، بغداد 1988).

(3) نُشر جزءاً من الكتاب الدكتور محمود مكي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطرد، العدد 5، ص: 222 نقلاً عن

الدكتور عبد الرحمن علي الحجي في كتابه: التاريخ الأندلسي، ص: 59.

(4) انظر: ج 2، ص: 106 - 107، طبعه موفم للنشر، الجزائر، 1989.

(5) انظر: ص: 154، نقلاً عن الدكتور عباس الجارري في كتابه: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ص: 66 – 67.

(6) مخطوط باخترانة الحسينية بالرباط رقم 2647. نقلًا عن د. عباس الجراري: المرجع السابق، ص: 61.

(7) انظر: مج 5، ص: 321 - 332، ط. دار الثقافة، بيروت.

(8) انظر: ابن هذيل، المرجع السابق، ص: 70 - 71.

(9) المقرئ: نفع الطيب، مج 1، ص: 240 - 241.

(10) د. سوادى عبد محمد: المرجع السابق، ص: 85 - 86.

وإن كان اختلاف النصوص في المصادر القديمة يدعو إلى الاعتقاد بأن الخطبة قد أدخلت عليها تعديلات وإضافات من قبل الأجيال اللاحقة حتى انتهت إلى الشكل الذي هي عليه الآن.

#### 4. نص الخطبة<sup>(1)</sup>:

قال: "أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام، في مأذبة اللثام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وذر<sup>(2)</sup> لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم<sup>(3)</sup>، وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة<sup>(4)</sup> هذا الطاغية، فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنّي لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة<sup>(5)</sup>، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس (إلا وأنا)<sup>(6)</sup> أبداً بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأزفة الأبد طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي، [وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحل المنسوجة بالعقيان<sup>(7)</sup>، لمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان]، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال غرباناً<sup>(8)</sup>، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً<sup>(9)</sup>، ثقة منه بارتياحكم للطعان<sup>(10)</sup>، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليّ إجمادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين، واعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلك بعدة فقد كفيتكم أمره، ولم يغوزكم بطل عاقل تسندون أموركم

(1) انظر المقرئ: نفع الطيب (تحقيق إحسان عباس)، مج 1، ص: 240 - 241.

(2) الوزر: اللثام والمتنصم والمراد به هنا السلاح.

(3) ذهب ربحكم: ذهب قوتكم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾ سورة الأنفال، الآية: 46.

(4) المناجزة: المقاتلة والقضاء على الخصم.

(5) بنجوة: منجاة، بخلص والأصل في النجوة: المكان المرتفع.

(6) زيادة من ابن خلكان.

(7) العقيان: الذهب.

(8) غرباناً: وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عربان: جمع أعزب كاعشى وعميان، أو جمع عازب: كصاحب وصحبان، أو جمع عزيب: كشجيع وشجعان: وهو الذي لم يتزوج، ويبدو أن هذه الرواية هي الصحيحة بدليل قوله بعد ذلك "ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً".

(9) أختاناً: جمع مفردة ختن بالتحريك: وهي الصهر وكل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ والعم وكزوج البنت أو زوج الأخت ومن كان من قبل المرأة جميعهم أختان، ومن قبل الزوج أحماء.

(10) ارتياحكم للطعان: رضاكم بالقتال، ارتاح إلى الشيء: رضى به وقبله.

إليه وإن هلك قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزمي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخلدون".

## ثانياً: تحليل الخطبة:

### 1. عنوان الخطبة:

تُعرف هذه الخطبة في الكتب المدرسية باسم "خطبة طارق بن زياد" أو "خطبة طارق في الترغيب في القتال"<sup>(1)</sup>، وليس هذا العنوان جزءاً أصيلاً في الخطبة، وإنما هو عنوان وضعه لها، اجتهداً، بعض المنتقن للتمييز بينها وبين خطب الآخرين، وهذا يعني أن هؤلاء المنتقن قد أقرّوا أن لطارق خطبة واحدة، ونحن لا نشاطرهم الرأي في ذلك، لأننا نعرف أن ما وصلنا من مصادر قديمة قليل جداً، وأن ما وصلنا فيها من أخبار ونصوص ليس غير جزء ضئيل مما كنا ننتظر وما زلنا ننتظر أن يأتي يوم يكشف فيه النقاب عن تراثنا الدفين، ولعلنا نكتشف عندئذ أن لطارق خطباً أخرى وأشعاراً أخرى، كما ذكرت بعض المصادر<sup>(2)</sup>.

ومن هنا جاءت بادرتنا، في التفكير في وضع عنوان لخطبة طارق، هذه، حتى نميزها من غيرها من الخطب المنتظرة من ناحية، وحتى نبين بأن العنوان هو ذاكرة النص ورأسه المفكر من ناحية ثانية، ونرى بأن العنوان المناسب لخطبة طارق، هو: "خطبة الفتح" على غرار "خطبة الوداع" للرسول الأعظم محمد (ﷺ).

### 2. نوع الخطبة:

تعدّ خطبة طارق بن زياد هذه من عيون الأدب العربي، وهي من أروع الخطب الحربية التي عرفها التاريخ، وهي من النوع الحماسي والحض على الجهاد.

### 3. هدف الخطبة:

هدف الخطبة الأساسي هو تحريض الجند على القتال وبعث الحماس في نفوسهم، وحثهم على الصمود والثبات لمواجهة العدو والانتصار عليه.

### 4. أقسام الخطبة ومضمونها:

تخلو هذه الخطبة من أي شكل من أشكال المقدمات، إذ يتناول طارق الموضوع مباشرة، ويشتمل على ثلاثة مقاطع متتالية تكون فيما بينها وحدة في الموضوع (الحث والتحريض على الجهاد).

المقطع الأول: الترهيب: ويبدأ بـ (أيها الناس، أين المفر؟...) وينتهي بـ (إلا وأنا أبداً بنفسي).

وقد وجه فيه طارق الخطاب إلى أصحابه، ورسم لهم صورة عامة للظروف التي هم فيها، مما يفرض عليهم الصمود والثبات لمجابهة العدو، وقد اعتمد في ذلك على المقابلة بين وضعيتهم

(1) انظر الدكتور محمد خليفة وزكي سويلم: الأدب العربي وتاريخه، ص: 104.

(2) انظر: المقرئ: المرجع السابق، مج 1، ص: 265، ذكر أن الأبيات الثلاثة من قصيدة، وهذا يعني أن أصلها أطول من ذلك.



137

وسعهم على تشويه التاريخ الإسلامي المجيد بجوانبه المتعددة، تارة بالزيادة، وطوراً بالحذف، ولكن ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مَتِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

المقطع الثالث: إبراز خطته الحربية في المعركة، ويبتدئ بـ (واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه)، وينتهي بـ (فإنهم بعده يخذلون).

وبعد أن تناول جانب الترغيب مركزاً على الجانبين المادي والمعنوي معاً، انتقل إلى إبراز خطته الحربية في المعركة التي يقبل عليها، واضعاً كل الاحتمالات الممكنة أمام أعينهم تجنباً للاضطراب أو تصدع الصفوف في حالة استشهاد القائد، وقد أعلن عن خطته في اللحظات الحاسمة قبل نشوب المعركة، مما يدل على حنكته وبعد نظره<sup>(2)</sup>، ثم أخبرهم بأن قتل لنزيق ملك الأعداء سيسهل مهمة فتح الأندلس، لأن قومه سيخذلون بعد قتله، وقد اتخذ نفسه قدوة لجنده عندما تكفل هو بنفسه بقتل لنزيق، وقال لهم: فإن مت بعد قتل الطاغية فقد كفيتم شره، عندئذ تستطيعون إسناد أموركم إلى بطل عاقل يخلفني في قيادتكم.

## 5. الأسلوب:

الأسلوب في هذه الخطبة، هو أسلوب الخطابة بشكل عام، يمتاز بالقوة والجزالة، وبالإيجاز والفصاحة، وبتماسك الجمل، والبعد عن الحشو والمبالغة وتكلف ما لا طائل تحته، وهو أسلوب عربي النسيج، خال من أية عجمة تشينه، أو غرابة وتعقيد يزيريان به، ويحطان من قدره، وهو فوق هذا بعيد عن المحسنات البديعية المتكلفة الممقوتة (باستثناء الفقرة الشاذة المضافة المشار إليها سلفاً)، والسجع الموجود في الخطبة من السجع القصير الفقرات الذي لا ينبو عنه الذوق، ولا تمجّه الأسماع، لأنه خال من كل مظاهر الصنعة والتكلف والخطبة في الجملة، تجري على طبيعتها، وعلى هدى معانيها فجملها قصيرة وقوية، متينة السبك، جميلة الصياغة، فلا نجد لفظة مقحمة في غير مكانها.

## 6. العاطفة:

تزخر الخطبة بالعواطف الدينية الصادقة، وتظهر عاطفته الدينية واضحة في هذه الخطبة وتتجلى في اهتمامه بالجانبين الروحي والمادي معاً، وفي سعيه إلى الاستشهاد بإيمان كبير وروح عالية، وحث قومه على الجهاد، كما تتجلى العاطفة الطينية في الجمل الدعائية التي تتخلل الخطبة، وفي بعض المعاني التي يستمدّها من القرآن الكريم<sup>(3)</sup>.

وعاطفة طارق تتدفق بحب الجهاد والتوق إلى النصر، ولا ريب أنها عاطفة صادقة قوية، ولولا ذلك ما أحدثت انفعالاً وأثراً قويين في نفوس الجند.

(1) سورة الصف، الآية: 8 ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مَتِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

(2) علي لغزيوي: المرجع السابق، ص: 413.

(3) علي لغزيوي: المرجع السابق، ص: 414.



## 7. الهانج:

ومعانيه واضحة سهلة، بعيدة عن العمق والتكلف خالية من الصور الفلسفية، ولكن الروح الدينية، تعمُ معاني الخطبة، فنلاحظ تأثر طارق بأفكار القرآن الكريم والحديث الشريف، ولا سيما حين يتحدث عن الأثر النفسي للتقاعس واحتمال تجرؤ العدو عليهم بعد جنبه أمامهم، ثم حين يغريهم بالألذ والأرفه بعد الأشق القليل، وكأنه يقيس تلك المكافأة الدنيوية على العمل الطيب بمكافأة الآخرة على الدنيا<sup>(1)</sup>.

## 8. خلاصة:

في ختام حديثنا عن تحليل الخطبة، يجدر بنا أن نسجل الملاحظات الآتية:

أ - إنَّ مجمل الروايات العربية والإسلامية، قد أشادت بهذه الخطبة، ونوّهت بما كان لها من أثر في إذكاء شجاعة الجند، وتمتين الثقة في نفوسهم لتحقيق الانتصار والظفر بهذه الجزيرة<sup>(2)</sup>.

ب - تكوير طارق من خلال هذه الخطبة تفكير سليم، فهو يجيد التعليل والتدليل، ويحسن تقديم الحجج والبراهين.

ج - له ذكاء متوقّد، يسبرُ أغوار النفس البشرية، ويعرف ما يدور في أذهان المستمعين، فيخاطبهم حسب عقولهم.

د - له مخيلة نشيطة، وإحساس مرهف، فمخيلته تجسّم الأفكار، وتصنع الخطط، وتصور المواقف، وإحساسه يتلقى التأثيرات ويعكسها لجنوده، وما فعله مع جنوده حين جعل نفسه مثلاً حياً يتقدم صفوف المجاهدين يذكرنا بالقول المأثور: "إذا أردت أن تبكيني فابدأ أنت بالبكاء".

هـ - وكانت ثقته في نفسه وفي جيشه كبيرة، وكان جريئاً في آرائه، رابط الجأش في موقفه. و - كما كان صادقاً مع جنوده لا يراوغ ولا يخاذل.

ز - وتعدّ هذه الخطبة، أول ريح معطرة بالبلاغة تهبُّ على أرض الأندلس<sup>(3)</sup>.

ح - وقد التزم فيها بلازمة الخطبة (أيها الناس)، كما التزم بالإيجاز، إذ لا إطناب، لأنَّ الظرف غير مناسب لذلك والإيجاز يطلب في ثلاث حالات (الحروب، والتهنئة، والتوصية).

ط - وجملته القول: إنَّ خطبة طارق بن زياد، في مجملها جيدة من حيث قيمتها الفنية، وهي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند<sup>(4)</sup>.

(1) د. أحمد بسم الساعدي: المرجع السابق.

(2) د. سوادى: المرجع السابق، ص: 88.

(3) د. محمد خليفة وزكي سويلم: المرجع السابق، ص: 109.

(4) د. محمد خليفة وزكي سويلم: المرجع السابق، ص: 106.

## ثالثاً: خطبة طارق بين الشك واليقين

تمهيد:

لقد اختلف الدارسون بشأن هذه الخطبة وبشأن الأبيات التي قالها طارق بن زياد في الفتح، وأوردها المقرئ في النفع نقلاً عن الحجاري في "المسهب" وابن اليسع في "المغرب" (1)، فاختلّفوا في نسبة هذين النصين إليه، فوقف بعض الباحثين وقفة شك في نسبة الشعر والخطبة إليه وأثبتهما له باحثون آخرون، وسنتناول آراء هؤلاء وهؤلاء في هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، ثم نبين بطلان هذا الشك.

### 1 - الشاكون في الخطبة:

لقد شك بعض المؤرخين في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، ويبدو أنّ هذا الشك جاء أولاً من بعض المستشرقين الذين يشك في نياتهم (2) (لأن "الاستشراق" و"الاستعمار" و"التبشير" ثلاثة أسماء لشيء واحد)، ثم حذا حذوهم بعض مؤرخي العرب، فشكوا هم بدورهم في نسبة الخطبة، ومن هؤلاء الدارسين الشاكين: الدكتور أحمد هيكل (3) والدكتور عمر الدقاق (4)، والأستاذ محمد بن تاويست والدكتور محمد الصادق العفيفي (5) والأستاذ محمد عبد الله عنان (6)، والأستاذ محمد حسن كجة (7)، والدكتور عمر فروخ (8)، والدكتور أحمد بسام الساعي (9) والدكتور سوادي عبد محمد (10)، والدكتور عبد الرحمن الحجّي (11)، وغيرهم. غير أنه يكاد يكون الدكتور أحمد هيكل في كتابه (الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة) هو الأصل لمعظم الدراسات التي ظهرت بعده في هذا الموضوع، وعليه اعتمد الدارسون الآخرون حيث نقلوا كلامه بتصريف، ولهذا سنورد رأيه دون الالتفات إلى آراء الآخرين.

### 2 - أسباب الشك.

يرتاب الدكتور أحمد هيكل ومن حذا حذوهم في نسبة الخطبة إلى فاتح الأندلس، ويرون أن نسبتها إليه يحف بها كثير من الشك، وذلك لعدة أسباب منها:

أ - أن طارق بن زياد كان بربرياً مولى لموسى بن نصير، وكان أول عهده بالإسلام والعربية

(1) انظر: المقرئ: نفع الطيب، مج 1، ص: 265.

(2) محمد الطيب عبد النافع وإبراهيم يوسف: تاريخ الأدب والنصوص. ص: 172.

(3) انظر كتابه: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص: 67 وما بعدها.

(4) انظر كتابه: ملامح الشعر الأندلسي، ص: 48 - 59.

(5) انظر كتابهما: الأدب المغربي، ص: 103 - 104.

(6) انظر كتابه: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول، ص: 47.

(7) انظر كتابه: محطات أندلسية، ص: 32.

(8) انظر كتابه: تاريخ الأدب العربي، ج 4، ص: 40 (هامش 1).

(9) د. أحمد بسام الساعي: المرجع السابق.

(10) انظر: سوادي عبد محمد: المرجع السابق، ص: 83 وما بعدها.

(11) انظر كتابه: التاريخ الأندلسي، ص: 59 وما بعدها.

ب - ومن أسباب هذا الشك أن المصادر الأولى التي سجلت حوادث الفتح، قد خلت تماماً من أي حديث عن هذه الخطبة، ولم يرد ذكرها إلا في بعض المصادر المتأخرة كثيراً عن فترة الفتح، كنفح الطيب للمقري.

د - أما "العربان" الذين ذكرهم طارق في خطبته "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً"، فلم يكونوا في حقيقة الأمر، وحسب المصادر التاريخية الموثوقة "عرباناً"، بل كان معظم أفراد جيش طارق من برابرة المغرب<sup>(1)</sup>.

يبدو في كلام الدكتور أحمد هيكل ومن سار في فلكه مبالغة واضحة، ونحن نختلف معهم فيما ذهبوا إليه، ونرد عليهم بالحجة فيما يأتي:

يبدو أنَّ الذين رأوا هذا الرأي لم يدققوا النظر في حياة الرجل الذي كان على صلة بالعروبة والإسلام منذ حداثة، فقد ذكر له ابن عذاري أبوين في الإسلام (طارق بن زياد بن عبد الله)<sup>(2)</sup>، وأغلب الظن أنه ليس هو الذي أسلم أولاً، بل والده وجده الذي يكون قد سُبي في إحدى حملات الفتح الأولى وأخذ إلى (مصر) أو (الشام)، وهناك في ديار الإسلام نشأ طارق مسلماً، فأحسن العربية مع الاحتفاظ بلهجة أجداده البربرية، ثم جُند بعد ذلك في إحدى حملات موسى بن نصير، وجاء معه إلى المغرب<sup>(3)</sup>.

ب - وأما بالنسبة إلى إهمال المصادر القديمة لهذه الخطبة، وظهورها في كُتُب المؤرخين

(2) ابن عذاري: البيان المغربي، ج 2، ص: 5.

(3) الدكتور سهيل زكار: مائة أوائل من تراثنا، ص: 170. وانظر كتابه: تاريخ العرب والإسلام، ص: 423.

والأدباء المتأخرين، على حدّ زعمهم، فهذا الأمر لا ينهض دليلاً على رفضها، لاسيما ونحن نعرف أنّ ما وصلنا من هذه المصادر قليل جداً، وأنّ ما وصلنا فيها من أخبارٍ ونصوص ليس غير جزء ضئيل مما كنّا ننتظر، وما زلنا ننتظر أن يصلنا يوم يُكشف النقاب فيه عن تراثنا الدفين ثم إنّ القول بإهمال المصادر القديمة لهذه الخطبة قول مبالغ فيه، فقد فات الدكتور أحمد هيكل والأستاذ عبد الله عنان ومن هذا حذوها أن يطلعوا على كتب كثيرة ألّفت قبل "نفح الطيب" وردّت فيها هذه الخطبة بنصوص متشابهة حيناً، ومختلفة حيناً آخر<sup>(1)</sup>، وهي:

- 1 - تاريخ عبد الملك بن حبيب<sup>(2)</sup> المتوفى سنة 238هـ.
- 2 - الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة<sup>(3)</sup>، المتوفى سنة 276هـ.
- 3 - سراج الملوك للطرطوشي<sup>(4)</sup>، المتوفى سنة 520هـ.
- 4 - ربحان الألباب وريحان الشباب في مراتب الآداب لأبي محمد عبد الله المواعيني الإشبيلي<sup>(5)</sup>، عاش في عصر الموحدين.
- 5 - وفيات الأعيان لابن خلكان<sup>(6)</sup>، المتوفى سنة 681هـ.
- 6 - تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل<sup>(7)</sup>، عاش في القرن الثامن الهجري.
- 7 - أما صاحب نفح الطيب<sup>(8)</sup>، فقد توفي سنة 1041هـ.

وإنّ، فقد وردت هذه الخطبة المنسوبة إلى طارق في مصادر قديمة، مشرقية ومغربية، دون أن يقطن إليها هؤلاء الشاكرون، ولم يكن صاحب نفح الطيب أول من أوردتها، على حدّ زعمهم. ونعتقد أنّ هذا الوهم ناتج عن عدم التمييز والتدقيق أثناء الدراسة، والاكتفاء بنقل الأحكام الجاهزة دون التأكد من صحتها أو خطئها، ودون إجهاد النفس بالعودة إلى المصادر القديمة للتوثق من صحة تلك الأحكام.

(1) الدكتور عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص: 58 - 59.

(2) نشر قسماً من الكتاب الدكتور محمود مكي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدرّيد تحت عنوان: مصر وأصول كتابة التاريخ العربي الإسباني، سنة 1957، العدد: 5، ص: 221 وما بعدها. وانظر الدكتور عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص: 95.

(3) انظر: الإمامة والسياسة، ج2، ص: 106 - 107، طبعة موفم للنشر، الجزائر، 1998.

(4) انظر: سراج الملوك، ص: 154، نقلاً عن الدكتور عباس الجراري: المرجع السابق، ص: 61.

(5) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 2647 نقلاً عن الدكتور عباس الجراري: المرجع السابق، ص: 61.

(6) انظر: وفيات الأعيان، مج5، ص: 321 - 322، دار الثقافة، بيروت.

(7) انظر: تحفة الأنفس (لوحه 48 مخطوط رقم 1652 الأسكوريال) اقتبسه محمد عبد الله عنان في كتابه دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ص: 46 - 47.

(8) انظر: نفح الطيب، مج1، ص: 240 - 241.

ج - أما بالنسبة لأسلوب الخطبة الذي لم يكن معروفاً في تلك الفترة، فالسجع والمحسنات البديعية، قد عاشت في عصر متأخر عن أواخر القرن الأول الهجري على حد رأيهم.

لقد أشرنا إلى هذه المسألة عند حديثنا عن الأسلوب، وبيننا بطلان هذا الزعم، فأسلوب الخطبة هو أسلوب الخطابة في ذلك العصر، بشكل عام، يمتاز بالقوة والجزالة، وهو فوق ذلك بعيد عن المحسنات البديعية الممقوتة، ما عدا الفقرة الشاذة التي يغري فيها طارق جنوده بفتيات الأندلس. فهي ليست من إنشاء طارق، وإنما أضافها بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين لتثويهِ التاريخ الإسلامي المجيد بجوانبه المتعددة، فالجيوش الإسلامية لم تكن تغزو من أجل الغنائم وإنما كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولذا، فلا يمكن أن نظن - كما ظن هؤلاء الشاكون - لأن هذه الفقرة وسائر فقرات الخطبة أجزاء من عمل أبي واحد، فالفارق واضح في الأسلوب، وفي المعاني، وفي مخالفتها لحقائق تاريخية أحياناً، كإحجام كلمة "اليونان" في الفقرة المضافة...

د - أما الرد الرابع، فيتعلق بكلمة (عربان)، فقد وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عزيان: جمع عذب)، وعلى هذا الوجه ينتفي الشك الذي استندوا إليه، لأن معظم أفراد جيشه الذي جهّز به حملته كان من برابرة المغرب<sup>(1)</sup>.

#### 4. المثبتون للخطبة:

وإذا كان بعض الدارسين قد شكوا في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق - كما رأينا - انطلاقاً من حجج نراها واهية، وفندناها، فإن هناك باحثين آخرين ردوا على من شك في صحتها، وتصدّوا لإثبات صحتها ونسبتها، ومن هؤلاء الدارسين أستاذنا الدكتور عبد السلام الهراس الذي "أورد نصوص خطبة طارق من المصادر المختلفة التي أحصاها، وهي: نص ابن خلكان - نص الإمامة والسياسة - نص تحفة الأنفس لابن هذيل - نص ربحانة الألباب للمواعيني - نص عبد الملك بن حبيب - نص الطرطوشي - نص نفح الطيب وهو المعروف المتداول، وقارن بينها، واستخلص منها ثلاث صور للنص مختلفة بعض الاختلاف ولا سيما في الصياغة هي:

أ - نص الإمامة والسياسة.

ب - نص ابن خلكان ونفح الطيب.

ج - نص ابن هذيل، وهو يجمع بين النصين السابقين.

وتوصل من خلال دراسته لهذه النصوص إلى إثبات صحتها<sup>(2)</sup>. كما أثبتها الأستاذ عبد الله كسّون<sup>(3)</sup>، والعلامة شكيب أرسلان<sup>(1)</sup>، والأستاذان: محمد الطيب وإبراهيم يوسف<sup>(2)</sup>، والدكتور علي

(1) د. أحمد بسام الساعي: المرجع السابق.

(2) د. أحمد بسام الساعي: المرجع السابق.

(3) د. علي لغزوي: المرجع السابق، ص: 414 - 415.



## المصادر والمراجع

- تاريخ الأدب والنصوص: محمد الطيب عبد النافع وإبراهيم يوسف.
- ملامح الشعر الأندلسي: محمد الطيب عبد النافع وإبراهيم يوسف.
- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الأندلس: محمد الطيب عبد الناظم.
- الموجز في الأدب العربي وتاريخه: وضع لجنة من الأساتذة في الأقطار العربية. دار المعارف - القاهرة.
- تاريخ المسلمين: د. عبد العزيز سالم.
- خطبة طارق بن زياد وهل قالها حقاً: مجلة العربي (عدد إبريل رقم 293 - عام 1983م).
- مائة من أوائل تراثنا: د. سهيل زكار.
- وفيات الأعيان - ابن خلكان - دار الثقافة - بيروت.

- الأدب العربي وتاريخه: د. محمد محمد خليفة وزكي سليم - القاهرة 1987م.
- تاريخ افتتاح الأندلس: ابن القوطيه.
- أبناء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث: بطرس البستاني. بيروت، دار مارون عبود.
- البيان المغربي: في أخبار الأندلس والمغرب. ابن عذاري المردكش - ليدن 1948م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: حمد بن محمد المقرئ التلمساني: تحقيق: إحسان عباس - بيروت - دار صادر 1988. ونسخه المطبعة الأزهرية - القاهرة 1302هـ.
- طارق بن زياد: د. سوادى عبد محمد - بغداد 1988م.
- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها: د. عباس الجراري - الرباط 1979م - مكتبة المعارف.
- أدب السياسة والحرب في الأندلس: علي الغزيوي - الرباط - مكتبة المعارف 1987م.

